

القيروان من أغزر المنابع للفقهاء المالكي

الشيخ عبدالرحمن خليف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلوات الله المباركات على سيدنا محمد خاتم النبيين المرسلين وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد، فإن سلف الأمة كانوا لا يمارسون أعمالهم إلا في ضوء قول رسول الله ﷺ: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين»⁽¹⁾. وقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُفقهه في الدين»⁽²⁾.

وقد نبغ في سلف الأمة رجال اختصهم الله بمزيد الحرص على معرفة ما يريد الله من عباده، فعرفوا مراد الله منهم معرفة فقهية شاملة، ووضحت لهم بتلك المعرفة معالم العقيدة والشريعة والسلوك، فكانوا في كل ذلك على بينة من ربهم ﴿أَفَنَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ كَذَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَذِبًا مُّبِينًا﴾⁽³⁾. ولقد ترك لنا التاريخ ما يكشف عن مدى التزامهم بتطبيق هدى الله في كل صغيرة وكبيرة.

وفي صعيد ذلك الالتزام يجري بينهم تصحيح مفاهيم النصوص الواردة عن الله ورسوله، لكي تستقيم لهم ولمن بعدهم مناهج السلوك الذي يُرضي الله ورسوله.

(1) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) رواه الشيخان عن معاوية رضي الله عنه.

(3) سورة محمد آية: 14.

وما أكثر الأحداث التي كانت تجري بينهم لتصحيح مفاهيم النصوص، وحسبي أن أسوق أنموذجاً منها.

لقد عرض علينا أبو الحسن القابسي رحمه الله أن دابة هربت من يد صبيّ كان يمسكها، فقلت أعطوها لصبي لا يقوم بها فضاعت.

قال القابسي: فقال لي أبو إسحاق الجبنياني: إنك قد اغتبتته.

فقلت: إنّي وصفته بحاله وقلة مقدرته، وفي السنة ما يبيع ذلك.

فقال: وأين هو؟

قلت: قوله عليه الصلاة والسلام للمرأة التي شاورته في النكاح (أمّا أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأمّا معاوية فصعلوك لا مال له).

فقال لي أبو إسحاق: ليس في هذا حجة، لأن المستشار مؤتمن (يعني ومن واجب أمانته أن يدل المستشار على ما تدعو إليه الحاجة).

ثم قال أبو إسحاق وأيضاً فإنما شاورته المرأة لتتضح برأيه، ورأيه يُدخلها في النكاح أو يصرفها عنه، وليست مسألتنا كذلك⁽¹⁾.

في مثل هذا الجوّ النقيّ المخلص لله، كانت مسيرة الحياة لا تتوقف بالآمة، وقد نبغ في منطلق مسيرتها رجال اضطلعوا بالحمل لنصوص الفقه كما تفوّقوا في الفهم الحصيف لما يتحملون، وكان في طليعة الفائزين بحمل لواء هذا الأمر أبو حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن ادريس الشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم.

ولمّا كان ملتقانا هذا خاصّاً بدور القيروان في الحفاظ على الفقه المالكي، وبمساهمتها في نشره سليماً من التزييف والتحريف فإنّ بآع أيّ باحث يقصّر عن الاحاطة بأبعاد ذلك الدّور العظيم في محاضرة أو مقال، ولكن الملتقى يسمح بعرض صورة مصغّرة جدّاً لما قامت به القيروان في هذه

(1) المدارك ج 3 ص 513.

المهمّة الشريفة عبر مئات السنين .

إنّ ينابيع الفقه المالكي أربعة - بعد المدينة المنورة - وهي مصر والقيروان وقرطبة وبغداد .

والحقّ أنّ القيروان من أغزر تلك المنابع، فقد قال الدكتور عبد الرحمن ياغي: ؛ إذا عرفنا أنّ الدباغ صاحب معالم الايمان قد ترجم لعدد من العلماء والفقهاء يبلغ المائة والثلاثين فقيهاً في ما بين سنتي 333 و495 أدركنا كثرة النابهين في الفقه من هذا القطر⁽¹⁾.

ولكنّ أمراً آخر هو أضخم ممّا لفت نظر الدكتور ياغي، وهو ما عرضه ابن ناجي ممّا أضافه إلى المعالم في الجزء الثاني منه حيث قال:

سأل عبدالله بن غانم بعض ثقاته يوم الجمعة، فقال له: هل حضرت الجامع اليوم؟

قال: نعم .

قال: من رأيت به؟

قال: رأيت سبعين قلنسوة يستحقّون القضاء، ورأيت ثلاثمائة قلنسوة فقيه .

فاسترجع ابن غانم عندما سمع ذلك، وقال ذهب الناس .

وعلق ابن ناجي على ذلك قائلاً: فاسترجاع عبدالله بن غانم يدّل على أنّ علماء زمانه أقلّ ممّا كان عليه العلماء في القديم من الكثرة، وما زالت البركة فيها⁽²⁾.

إنّ من الواضح أنّ تلك الكثرة من الحاملين للفقه المالكي لم يكونوا في مرتبة واحدة، وإنّما كانوا على مراتب .

(1) حياة القيروان 90 .

(2) معالم الايمان ج 3 ص 18 .

مراتب هذا الفهم من الفقهاء :

لم يكن أولئك الفقهاء على مستوى واحد، سواء أكانوا ممّن نشأوا فيها من أبنائها أم ممّن وفدوا عليها للدراسة .

وخير ما يكشف عن هذه الحقيقة ما حرّره ابن رشد في مراتب المالكية بصفة عامّة، فقد قسمهم إلى ثلاث طوائف فقال :

- الأولى :

طائفة اعتقدت صحّة مذهب مالك تقليداً بغير دليل، فأخذت أنفسها بحفظ مجرّد أقوال أصحابه في مسائل الفقه، دون التفقه في معانيها بتمييز الصحيح منها والسقيم .

فهذه الطبقة لا يصحّ لها الفتوى بما علمته وحفظته من قول مالك وقول أصحابه، إذ لا علم عندها بصحّة شيء من ذلك .

- الثانية :

طائفة اعتقدت صحّة مذهب مالك بما بان لها من صحّة أصوله التي بنى عليها، فأخذت أنفسها بحفظ مجرّد أقواله وأقوال أصحابه في الفقه وتفقهت في معانيها، فعلمت الصحيح منها الجاري على أصوله من السقيم الخارج عنها، إلّا أنّها لم تبلغ درجة التحقيق بمعرفة قياس الفروع على الأصول، وهذه الطبقة يصلح لها أن تُفتي إن استُفتيت .

- الثالثة :

طائفة اعتقدت صحّة مذهب مالك بما بان لها أيضاً من صحّة أصوله، لكونها عالمة بأحكام القرآن، عارفة للناسخ والمنسوخ والمفصل والمجمل، والخاصّ من العام، عالمة بالسّنن الواردة في الأحكام، مميّزة بين صحيحها من معلولها، عالمة بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من فقهاء الأمصار وبما اتّفقوا عليه واختلفوا فيه، عالمة من علم اللسان بما يفهم به معاني الكلام عالمة بوضع الأدلة في مواضعها .

وهذه هي التي يصحّ لها الفتوى عموماً بالاجتهاد والقياس على الأصول التي هي الكتاب والسنة واجتماع الأمة بالمعنى الجامع بينها وبين النازلة⁽¹⁾.

ومن هنا قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله :

لم أجد مذهباً أشدّ في الفتوى تشديد المالكية فيها، ثمّ قال :

وقد جاء ذلك التشديد في كتب كثير من العلماء المتقدمين وأيدهم في ذلك التشديد من جاء بعدهم⁽²⁾.

أنّ القيروان آتاه الله أعظم الحظوظ في إنجاب الأفاض المؤهلين للقضاء والفتوى، على مقتضى مذهب مالك رضي الله عنه، كما كان لها أطول باع في ثلاثة ميادين أساسية في الحفاظ على مذهب امام دار الهجرة، ونشره في العالم الاسلامي وخاصة في الشمال الافريقي والأندلس وتلك الميادين هي :

- ميدان تحرير التآليف الرصينة القيّمة .

- ميدان التدريس لاشباع نهم الوافدين على القيروان للتزوّد بعلوم الدين من موقع يتمتّع بشيوخه بأمتن الصلات بعلماء المدينة مبعث الحقّ والهدى والفضل حتى يتأهلوا في القيروان للدعوة إلى الله على هدى وبصيرة .

- ميدان تزويد بعض الأقطار الاسلامية بالفقهاء من أبناء القيروان أو ممّن تخرّجوا فيها من أبناء الأقطار الأخرى .

ميدان التأليف :

تتصدّر المدوّنة طليعة ما سالت به أقلام علماء القيروان، فهي التي جذبت إليها الأنظار وعكّفت على دراستها النظار .

وهي الكتاب الجامع لفروع الفقه المالكي، والتي وضعت أسس

(1) نقل ذلك الخطاب في شرحه على مختصر خليل ج 6 ص 94 .

(2) مالك بن أنس لأبي زهرة ص 446 .

الفقه المقارن بعرضها لآراء مالك على أقوال الصحابة.

قال فيها ابن رشد (ت 520) وهو المعروف بصحة النظر ودقة الفقه :

ليس بعد موطأ مالك ديوان في الفقه أفيد من المدونة... ثم يقول :
وموضعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة، تجزىء عن غيرها ولا
يجزىء غيرها عنها⁽¹⁾.

وقال القاضي عياض (544) :

هي أصل المذهب، والمرجح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإياها
اختصر مختصروهم، وشرح شارحوهم، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم.

أما منزلتها في الشرق فينقل عياض عن القاضي أبي محمد عبد الوهاب
البغدادى أنه رجح مسائل المدونة من أجل رواية سحنون لها عن ابن
القاسم⁽²⁾.

ومنذ أن أدرك الناس قيمة المدونة ذاع صيتها في العالم الإسلامي
وعكف كبار العلماء على الاشتغال بها إما شرحاً، وإما تفريعاً، وإما اختصاراً
بحذف الأحاديث والآثار، وإما استظهاراً وحفظاً.

وكان من شراحها أبو حفص عمر بن عبد النور الصقلي قد شرحها في
نحو من ثلاثمائة جزء⁽³⁾.

والواقف على كتب التراجم يجد العشرات من التأليف التي تدور حول
المدونة، وهو أمر يشير الإعجاب بالنهضة العلمية التي بعثتها المدونة منذ
ظهورها واستمرت عدة قرون.

(1) المقدمات ص

(2) المدارك ج 3 ص 299.

(3) المدارك ج 4 ص 800.

كما يجد الواقف على كتب التراجم عدداً متّناً يحفظون المدوّنة عن ظهر قلب من بينهم أبو القاسم عبد الخالق السيوري (ت 460)⁽¹⁾ وأبو حفص العطار⁽²⁾ وعبدالله بن محمد التادلي الفاسي⁽³⁾ ومحمد بن يسمون الأنصاري من أهل طليطلة⁽⁴⁾.

ومن تفنن بعض القائمين بتدريس المدوّنة ما ذكره أبو عبدالله الزلديوي المفتي بتونس حيث قال :

من طريقة عبد العزيز بن موسى العبدوسي الفاسي اذا أقرأ المدوّنة أنّه يتبدىء المسألة بذكر أصحاب مالك، ثم ينزل طبقة طبقة، حتى يصل إلى علماء الأقطار من المصريين والإفريقيين والمغاربة والأندلسيين وأئمة الاسلام، وأهل الوثائق والأحكام... وهكذا ينتقل إلى المسألة الثانية... إلخ⁽⁵⁾.

ومن عناية الدارسين للمدوّنة أنهم أحصوا كلّ ما تضمنته من المسائل فكانت أربعين ألف مسألة، ومن الأحاديث فكانت أربعة آلاف حديث، ومن الآثار فكانت ستّة وثلاثين ألف أثر⁽⁶⁾.

كما قام أخيراً الدكتور طه محمد الدريدي بتخريج أحاديث المدوّنة في رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، وطُبعت الرسالة في ثلاثة مجلدات عام 1406.

إنّ من يحاول رسم صورة المدوّنة لمن لم تكن له صلة بها، ويعمد إلى رسم صورتها بملقطات مُقتضبة كما فعلت، لا أجد له مثلاً إلاّ كمن قدّم كأساً

(1) الفكر السامي ج 2 ص 212.

(2) المدارك ج 2 ص 323.

(3) الفكر السامي ج 4 ص 173.

(4) ترتيب المدارك ج 6 ص 177.

(5) الفكر السامي ج 2 ص 253.

(6) الديباج 256.

مملوءة ماء لشخص لم يكن شاهد البحر المحيط . وقال له : إن أردت معرفة البحر فهو كما ترى في الكأس .

ولكن أين الأمواج التي تعلو فيه كالجبال؟ وأين ما تزخر به أحشاؤه؟ وأين امتداده وأبعاده، وقرار أعماقه؟

وفي ميدان التأليف يُطالعنا محمد بن سحنون بكتاب رائع في سياسة الدولة الإسلامية، وهو كتاب الإمامة العامة والخلافة الراشدة، فقد نقل الدباغ في معالم الإيمان عن عيسى بن مسكين أن كتاب الإمامة الذي ألفه محمد ابن سحنون لمّا وصل إلى بغداد كتب بماء الذهب، وأُهدي إلى الخليفة⁽¹⁾.

ونقل المالكي في الرياض عن أبي العرب أن لمحمد بن سحنون كتابين في موضوع الإمامة العامة، ثم قال: وما أَلَفَ في هذا الفن أحسنُ منهما⁽²⁾.

وكيف لا يتفوّق محمد على الأفاضل من العلماء وهو المتقد ذكاء والمتدفق نشاطاً، والغني بتوجيهات أبيه، فقد كان يقول له:

يا محمد احذر أهل العراق، فإنّ لهم السنة حداداً، وإيّاك أن يغلط قلمك فتعتذر فلا يُقبل عذرك⁽³⁾.

وتتّبّع مؤلفات هذا النابغة لا يسمح المقام باستيفائها.

ولكن الدارس لميدان التأليف في القيروان لا بدّ أن تشدّه رسالة ابن أبي زيد رحمه الله وهي ممّا ألفه لتعريف صغار المسلمين بدينهم، فقد قال في أوّلها لمن سأله أن يؤلفها:

(أما بعد أعاننا الله وإيّاك على رعاية ودائعنا، وحِفْظِ ما أودعنا من شرائعنا، فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة،

(1) معالم الإيمان ج 2 ص 82.

(2) رياض النفوس ج 1 ص 346.

(3) معالم الإيمان ج 3 ص 80.

مما تنطق به الألسنة وتعتقد القلوب وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها... لِمَا رَغِبْتَ فِيهِ مِنْ تَعْلِيمِ ذَلِكَ لِلْوِلْدَانِ كَمَا تُعَلِّمُهُمْ حُرُوفَ الْقُرْآنِ).

قال الدباغ: ولَمَّا كَانَ الْقَصْدُ بِهَا أَنْ تُعَلَّمَ لِأَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَبْقَ بِلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بُلُغَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى بُلُغَتْ الْعِرَاقُ وَالْيَمَنُ وَالْحِجَازُ وَالشَّامُ وَمِصْرُ وَبِلَادُ النُّوبَةِ وَصُقْلِيَّةُ وَجَمِيعِ بِلَادِ افْرِيقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ، وَتَنَافَسَ النَّاسُ فِي اقْتِنَائِهَا حَتَّى كُتِبَتْ بِالذَّهَبِ، وَأَوَّلُ نَسْخَةٍ مِنْهَا بِيَعْتَ بِبَغْدَادٍ فِي حَلْقَةِ أَبِي بَكْرٍ الْأَبْهَرِيِّ بَعَشْرِينَ دِينَاراً ذَهَباً⁽¹⁾.

قال ابن ناجي أريد بيعها في بغداد بمائتي دينار دراهم، فقال أبو بكر ابن الأبهرى لا تباع إلا وزناً بوزن ففعل ذلك، فجاء وزنها ثلاثمائة دينار ونيفاً⁽²⁾.

ولقد اعتنى بالرسالة جماهير المؤلفين من فقهاء المالكية، فطائفة عظيمة يشرحونها، وطائفة يستمدون منها التأييد لما يذهبون إليه وآخرون يقومون بتخريج أحاديثها، وبعضهم نظم قسمها الأول الخاص بالعقيدة.

ونحن لا تحجبنا الرسالة بقيمتها العلمية عن المعلمة الكبرى التي خطها ابن أبي زيد رحمه الله وتلك المعلمة هي كتاب (النوادر والزيادات على ما في المدونة وغيرها من الأمهات) وأصل هذا الكتاب يقع في نحو مائة جزء.

وقد انتشر في حياة مؤلفه، فيحدثنا الشيخ الحَجَّوي في الفكر السامي أَنَّ عَبْدَ الرَّحِيمِ بْنَ أَحْمَدَ الْكُتَامِي مَفْتِي فَاَسَ سَمِعَ كِتَابَ النُّوَادِرِ مِنْ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ وَحَمَلَهُ إِلَى سَبْتِهِ⁽³⁾.

(1) معالم الأيمان ج 3 ص 139.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) الفكر السامي ج 3 ص 203.

أما الآن فكتاب النوادر الضخم يجري طبعه في بيروت برعاية دار الغرب الاسلامي.

أن مؤلفات ابن أبي زيد قد زادت على الثلاثين بين رسالة وكتاب، حتى قال فيه القاضي عياض:

ملأت الدنيا تأليفه، وعارض كثير من الناس أكثرها فلم يبلغوا مداه، مع فضل السبق وصعوبة المبتدأ⁽¹⁾.

ووصفه الذهبي في سير أعلام النبلاء بأنه الامام العلامة القدوة الفقيه عالم أهل المغرب، وكان أحد من برز في العلم والعمل⁽²⁾.

ومن فقهاء القيروان المؤلفين في الفقه المالكي أبو القاسم عبد الرحمن ابن علي الكتّاني المعروف بابن الكاتب قال عياض في المدارك له كتاب في الفقه يقع في نحو مائة وخمسين جزء⁽³⁾.

ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المعروف بالليدي فقد ألف كتاباً جامعاً في المذهب يزيد على مائتي جزء⁽⁴⁾.

ومنهم أبو الحسن القاسبي صاحب التأليف الكثيرة الجيدة، فقد ذكر الدباغ منها تسعة، منها كتاب سماه الممهّد بلغ ستين جزء ومات رحمه الله ولم يكمله، وهو كتاب مبوّب على أبواب الفقه، وقد جمع فيه بين الحديث والأثر والفقه⁽⁵⁾.

ومن المؤلفين المكثرين يحيى بن عمر. فقد نقل ابن فرحون عن أبي خالد في تعريفه أن ليحيى بن عمر من المصنفات نحو الأربعين.

(1) المدارك ج 3 ص 493.

(2) سير أعلام النبلاء 17 ص 10.

(3) الفكر السامي ج 2 ص 206.

(4) الفكر السامي ج 2 ص 209.

(5) معالم الأيمان ج 2 ص 178.

وحسبي أن أقف عند هذا الحدّ، فإنّ قائمة القيروانيين الحافظين للمذهب المالكي، والناشرين له تأليفاً وتدریساً قائمة طويلة، والمستشرف لها يتنازع الأسف والمسرة: الأسف من أن تلك القائمة لم تدوّن بأكملها في كتاب مستقلّ، والمسرة من أنها لم تنظمس بالكامل، بل وصلت إلينا من وراء القرون، ولو أنها وصلت مبعثرة في عديد المؤلفات.

ومن هنا قال الدكتور ياغي في حياة القيروان (. . .) فالفقه المالكي كان زائراً في هذا القطر وخير ما يحفظ لنا تلك الصورة هو المالكي في كتابه رياض النفوس، والدباغ في كتابه معالم الايمان، والقاضي عياض في كتابه المدارك وابن فرحون في كتابه الديباج المذهب، إذ إنّ هذه الكتب تصوّر لنا الحركة المالكية وأعلامها أوضح تصوير وأدقه⁽¹⁾.

ثمّ قال:

وكأنّ هذا القطر كان بيئة خصيبة تهىء لظهور هذا الحدّ النابه من علماء الحديث والفقه، وقد راج علمهم فطلبه الطلاب من أنحاء مختلفة⁽²⁾.

ميدان التدريس وتخريج العلماء:

إنّ الصفات المشتركة بين من سلفوا من شيوخ القيروان، تتمثل في عدّة أمور، وتبرز خمسة منها لكلّ باحث جادّ وهي:

- الالتزام بأداب السنة النبوية.
- العكوف على التأليف والتدريس.
- القيام بنوافل العبادة.
- العمل - في نفس الوقت - على الكسب الحلال.

(1) حياة القيروان ص 89.

(2) حياة القيروان ص 92.

- التصدي لتغيير كل منكر .

ولو أنهم في كل ذلك على مستويات متفاوتة .

وإن مرحلة السير في هذا البحث تدعو الآن إلى النظر في خصوص التدريس وتخريج العلماء .

كان جامع عقبة مستأثراً بالدروس العلمية أكثر بكثير من مساجد القيروان الأخرى، إلى جانب ما يُلقى من الدروس في الحوانيت أو الديار أحياناً لسبب ما .

وممن درّسوا في الحوانيت ربيع القطان، كان يُدرّس في حانوته وبيع القطن .

وكان الشيوخ ينّهون الطلبة عن التخلي الكامل عن التكسب، فقد نقل المالكي عن أبي عثمان سعيد بن الحداد أنه قال :

بلغني عن أسد بن الفرات أنه كان يختلف إليه شاب يطلب عليه العلم، فبينما هو ذات يوم جالس معه إذ سأله عن صناعته، فسَمّى له الشاب صناعته . فقال له أسد بانتهاز : قم .

فقال له الشاب : ما قصتي أصلحك الله؟ إن كنت أنكرت صناعتي تركتها .

فقال له أسد ما أنكرتها، ولكني أنكرت تعطيلك لحانوتك الذي منه معاشك وتقوى به على طلب العلم، وصاحب الحانوت إنما هو بالحرفاء، فإذا جاءك حريفك اليوم ولم يجدك، وغدا فلم يجدك وبعد غد مثل ذلك استبدلك بغيرك، فضررت نفسك ومن تَعَوَّلُهُ، ولكن إذا عزمْتَ فاجعل لنفسك يوماً أو يومين في الجمعة، يعلم حرفاؤك بمغيبك فيأخذون ما يحتاجون إليه قبل مغيبك⁽¹⁾ .

(1) الرياض ج 1 ص 185 .

وكان شيوخ القيروان إذا رأوا من لا مال ولا كسب له من طلبة العلم الوافدين على القيروان يبادرون إلى مساعدته حفظاً له من أن يُريق ماء وجهه لأحد يعطيه أو يمنعه.

قال الدباغ: كان ابن أبي زيد رحمه الله كثير البذل للفقراء والغرباء وطلبة العلم، كان ينفق عليهم ويكسّوهم ويزوّدهم⁽¹⁾.

وكان الفقيه أبو بكر بن أبي العباس الصقلي قد ذكر في مجلس من مجالسه فتاوي ابن أبي زيد وفضائله فبكى وقال:

كان أعطاني أيام طلبي عليه بالقيروان جارية وأنّ ولدي هذا منها، وأشار إلى ولده⁽²⁾.

وروى أبو الربيع المقرئ عن ثقات شيوخه أنّ بعض طلبة الأندلس وصل إلى أبي محمد بن أبي زيد للقراءة عليه، فأكرمه، وأنزله، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من نفقة، وجعله إمام مسجده، ثمّ زوّجه، وقد روى قصّة تزويج ابن أبي زيد للأندلسي في حديث طويل⁽³⁾.

أمّا أبو الحسن القابسي فكان يسكن الغرباء والمحتاجين منهم عنده قال حاتم الطرابلسي:

كنّا عند أبي الحسن علي بن محمد القابسي في نحو ثمانين رجلاً من طلبة العلم من أهل القيروان - يعني من آفاقها - ومن أهل الأندلس والمغاربة في علية عنده⁽⁴⁾ فكانت علية القابسي أقدم مبيت لطلبة العلم بالقيروان.

وفي حلقات التدريس بجامع عقبة حاول بعض المتنطعين أن يمسّوا عقيدة أهل السنة من وقت إلى آخر فتصدّى لهم الشيوخ بكلّ حزم.

(1) معالم الأيمان ج 3 ص 141.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) الصلة لابن بشكوال ج 1 ص 156.

فمما حدث من ذلك ما رواه ابن الحدّاد قائلاً :

حُذِّثْتُ عَنْ أَسَدٍ أَنَّ أَصْحَابَهُ كَانُوا يَقْرَأُونَ عَلَيْهِ يَوْمَاً فِي (تفسير المسيّب ابن شريك) إِلَى أَنْ قَرَأَ الْقَارِئُ (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة) وَكَانَ سَلِيمَانُ ابْنُ حَفْصٍ جَالِساً بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لَهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مِنَ الْإِنْتِظَارِ .

وَكَانَ إِلَى جَانِبِ أَسَدٍ نَعْلٌ غَلِيظَةٌ ، فَأَخَذَ أَسَدٌ بِتَلَابِيهِهِ ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْدِئاً ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى نَعْلَهُ وَقَالَ :

- أَيُّ وَاللَّهِ يَا زَنْدِيقَ لَتَقُولَنَّهَا ، أَوْ لَا يَبْيُضُنَّ بِهَا عَيْنُكَ .

فَقَالَ : نَعَمْ نَنْظُرُهُ⁽¹⁾ يَعْنِي نَنْظُرُ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَكَانَ أَمْرُ الْمُتَنَطِّعِينَ قَدْ تَفَاقَمَ قَبْلَ تَوَلِّي سَحْنُونَ الْقَضَاءِ ، فَلَمَّا وَلِيَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ 234 قَامَ بِإِخْرَاجِ أَهْلِ الْبَدْعِ مِنَ الْجَامِعِ ، وَكَانُوا فِيهِ حَلَقاً مِنَ الصُّفَرِيَّةِ وَالْأَبَاضِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ ، وَأَذَبَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ لِمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ ، وَأَطَافَهُمْ وَأَمْرَهُمْ أَنْ لَا يَجْلِسُوا فِي حَلَقَةٍ⁽²⁾ .

وَبَقِيَ الْجَامِعُ مَعْمُوراً بِدُرُوسِ شَيْوْخِ أَهْلِ السَّنَةِ كُظَيْظاً بِالْوَافِدِينَ عَلَى الْقَيْرَوَانِ لَطَلِبِ عُلُومِ الدِّينِ ، يَقُولُ ابْنُ فَرْحُونَ فِي تَرْجُمَتِهِ لِيَحْيَى بْنِ عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ : إِنَّ أَبَا زَكَرِيَاءَ يَحْيَى بْنَ عُمَرَ رَحَلَ إِلَيْهِ النَّاسُ . . . ثُمَّ قَالَ : وَكَانَ يَجْلِسُ فِي جَامِعِ الْقَيْرَوَانِ ، وَيَجْلِسُ الْقَارِئُ عَلَى كُرْسِيِّ يُسْمَعُ مَنْ بَعْدَ مِنَ النَّاسِ لَكثْرَةِ مَنْ يَحْضُرُهُ .

تَزْوِيدُ الْقَيْرَوَانِ لِلْأَطْفَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعُلَمَاءِ :

لَمْ يَزَلِ الْمُسْلِمُونَ فِي حَاجَةٍ عَظِيمَةٍ إِلَى الْعُلَمَاءِ بِهَذَا الدِّينِ ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ مَا بَقِيَ لِلنَّاسِ دِينٌ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ لِيَسْنِفِرُوا

(1) الرِّيَاضُ ج 1 ص 182 .

(2) مَعَالِمُ الْإِيمَانِ ج 2 ص 55 .

كَأَنَّهُمْ فَلَوْلَا غَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّسَفْهَتِهِمْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٧٢﴾ (١).

وقال ﷺ: (بلغوا عني ولو آية) (٢).

ومن هنا نفرّ طلاب علوم الدّين وجعلوا يفدون على منابع المعارف الدّينية وكان حظ القيروان من أولئك الوافدين حظاً عظيماً، فقد تخرج من علمائها المئات من نوابغ من ازدانت بهم دنيا المسلمين، وازدهرت بهم الحياة، وتأيّد الحقّ والعدل.

فَمِنْ مَن ازدانت بهم الأندلس من أولئك المتخرجين من القيروان:
- أبو سعيد عثمان بن أبي الصلت (ت 246) وكان أول من أدخل المدوّنة إلى الأندلس - المدارك 4 / 245.

- محمد بن يوسف بن مطروح (ت 271) - الديباج 2 / 221.
- أبو القاسم أصبغ بن خليل (ت 273) - الديباج 1 / 301.
- أحمد بن الوليد قاضي طليطلة - بغية الملتمس 209.
- أحمد بن محمد بن عجلان قاضي سرقسطة - الديباج 2 / 178.
- أبو عبدالله محمد بن وضاح (ت 286) - جذوة الملتمس 87.
- أبو عبدالله محمد بن أحمد العتبي (ت 255) - المدارك 4 / 252.
- محارب بن قطن بن عبد الرحمن الفهري (ت 256) - المدارك 4 / 256.

- أبو وهب عبد الأعلى بن وهب (ت 261) - الديباج 2 / 54.
- أبو القاسم أبان بن عيسى بن دينار (ت 262) - الديباج 1 / 304.

(1) التوبة آية 122.

(2) البخاري عن عبدالله بن عمرو.

- عبد الرحمن بن عيسى بن دينار (ت 270) - الديباج 1/ 304.

والقائمة تطول بتعدادهم، وتراجهم كتراجهم غيرهم من المتخرجين على علماء القيروان تنتشر في الديباج وفي المدارك وفي جذوة المقتبس وفي بغية الملتبس وفي كتاب الصلة وفي تكملة الصلة.

هذا مع العلم أنّ المتخرجين على علماء القيروان لم يكونوا من الأندلس فقط، فإنّ ابن فرحون عندما ترجم لابن أبي زيد رحمه الله ذكر أنه تفقه عليه جلة من العلماء، فمن أهل القيروان أبو بكر بن عبد الرحمن وأبو القاسم البرادعي وابنا الأجدابي وأبو عبدالله الخواص وأبو محمد مكّي.

ومن أهل الأندلس أبو بكر بن موهب المقبري، وابن عابد، وأبو عبدالله ابن الحذاء، وأبو مروان القنازعي.

ومن أهل سبّنة أبو عبد الرحمن بن العجوز وأبو محمد بن غالب وخلف بن ناصر، ثم قال: ومن لا يُعدّ كثرةً.

ومن أهل المغرب أبو علي بن أمدكتو السلجماسي⁽¹⁾.

ومن شيوخ القيروان الذين أخذ الناس عنهم بكثرة أبو عمران الفاسي (ت 430)، وأبو بكر الخولاني المعروف بحافظ المذهب (ت 432) على ما أورد ذلك الشيوخ الحَجَوِي في ترجمتهما في كتابه (الفكر السامي).

ولئن كانت عناية أهل القيروان بعلوم الدين من أشهر ما برز في حياة الأمة الإسلامية لقد كانت عنايتهم بتلك العلوم تبدأ مع الأطفال منذ نعومة الأظفار.

وأول ما يلفت النظر من ذلك هو شغفهم بكتاب الله وحِرْصهم على تحفيظه للأطفال، وبدا ذلك الشغف والحرص مع تأسيس القيروان، وسأعرض ما يوضح هذه الحقيقة، ويكشف عن مبلغ مداها.

(1) الديباج 137.

ذكر الدباغ في المعالم أن غياث بن أبي شيب قال :

كان سفيانُ بن وهب (ت 82 هـ) صاحبُ رسول الله ﷺ يمرّ بنا ونحن غِلْمة بالقُيَروان، فیسَلِّم علينا في الكُتَّاب وعليه عِمامة قد أرخاها من خلفه، ذكر ذلك الدارقطني⁽¹⁾.

وقال ابن ناجي في المعالم :

إنَّ عبدالله بن غانم قاضي القُيَروان عام 171 دخل عليه ولدٌ له من الكُتَّاب، فسأله عن سورته فقال :

حوَّلني المعلم من سورة الحمد لله .

فقال له : اقرأها .

فقرأها .

فقال له : تَهَجَّأها .

فتهجَّأها .

فقال له : ارفع ذلك المَقْعَد .

فرفعه فاذا تحته دنانير دون العشرين وفوق العشرة .

فقال له : ارفعها إلى معلمك .

فرفعها إليه ، فأنكرها المعلم وحملها إلى أبيه عبدالله بن غانم .

فقال له أبوه كالمعتذر : لم يحضرني غيرها ، فبدا من المعلم استنكار ذلك المقدار .

فقال له ابن غانم : أتدري ما علِّمتَه ؟ كلَّ حرف منها خير من الدنيا وما فيها⁽²⁾ .

(1) معالم الأيمان ج 1 ص 120 .

(2) معالم الأيمان ج 1 ص 120 .

وذكر عبد الوهاب الشعراني في كتابه (تنبيه المُفْتَرِّين) أن عبد الله بن أبي زيد القيرواني أعطى معلم ولده لمّا علّمه حزباً من القرآن مائة دينار . فقال له المعلم : أنا يا سيدي ما علمت شيئاً أستحق به هذا كلّهُ .

فما كان من ابن أبي زيد إلّا أنّ حوّل ولده إلى معلم آخر، وقال : هذا رجل لا يُقدّر قيمة القرآن⁽¹⁾ .

ولقد كان علماء القيروان يُقدّرون أهمية مرحلة الطفولة من حياة الانسان، فلذلك توجهت عنايتهم إلى وضع أعظم أسس التربية والتعليم، فألّف محمد بن سحنون (كتاب آداب المعلمين) وألف القابسي (الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين) وألف ابن الجزار (سياسة الصبيان وتدريبهم) .

إنّ من خصائص القيروان - مع كلّ ما تقدّم - أنها لم تكن من البلدان المفتوحة من قبل المسلمين أيام فتحهم لشمال إفريقيا، فهي ما كانت بربريّة، ولا رومانيّة وإنّما أُسست إسلامياً على تقوى من الله وفضله وهداه، ولقد ذكر أبو عبد الله البكري في المغرب : أن عقبة بن نافع رضي الله عنه دعا لها فقال : اللهم املاها علماً وفقهاً، وأعمرها بالمطيعين العابدين، واجعلها عزّاً لدينك وذلاً لمن كفر بك، وأعزّها بالاسلام، وامنعها من جبابرة الأرض⁽²⁾ .

ولم يزل بها على مرّ الزمان من العلماء والكتّاب وذوي البراعة في المعارف والآداب من تزدان بأوصافه الأقطار، وتشرق بأنوار كلامه الأسطار⁽³⁾ .

ونقل الشيخ محمد النيفر في (حسن البيان) عن الشيخ مقديش قوله :

إنّ القيروان منبعّ الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كلّ خير، والبلاد كلّها عيال عليها، فما من غصن في البلاد المغربية إلّا منها علا، ولا

(1) تنبيه المُفْتَرِّين ص 50 مطبعة الحلبي 1937 .

(2) المغرب ص 45 والمونس 18 .

(3) المونس ص 20 .

فرع في جميع نواحيها إلا عليها انبنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذهب،
والى أيمتها كلّ عالم يُنسب.

ثم قال:

ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على
طول الأمد والأيام⁽¹⁾.

كما نقل في حسن البيان عن أبي إسحاق الجبنياني رحمه الله أنه قال:
القيروان، رأس وما سواها جسد، وما قام برّد الشبه والبدع إلا أهلها،
ولا قاتل وقُتل على احياء السنة إلا أيمتها⁽²⁾.

هذه لقطات سريعة من الأقوال تعرّف - في اختصار شديد - بمنزلة
القيروان وبما قامت به من دور عظيم في تاريخ الاسلام.

ولعلّ أعظم ما مرّ بها من الفتن هي تلك التي أشار اليها أبو إسحاق
الجبنياني رحمه الله حين قال:

وما قدم برّد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل وقُتل على احياء السنة إلا
أيمتها.

فلقد طغا العبيديون أعظم الطغيان، فقسوا وبغوا على أهل القيروان،
ونكلوا أعظم التنكيل بكلّ من لم يُجارهم من علماء السنة.

وقد علّق ابن ناجي رحمه الله على تلك الفتنة العمياء بقوله:

جزى الله مشيخة القيروان خيراً، هذا يموت وهذا يُضرب، وهذا
يُسجن، وهم صابرون لا يفرّون، ولو فرّوا لكفرت العامة دفعة واحدة⁽³⁾.

نعم لقد ثار أهل القيروان في وجه الكفر والطغيان.

(1) حسن البيان ص 189.

(2) حسن البيان ص 189.

(3) معالم الأيمان ج 2 ص 292.

وكيف لا يثيرون وهم يسمعون أبا القاسم محمد بن هانيء يقول في مدح المعزّ العبيدي:

حَلَّ بِرَقَادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمَ وَنُوحَ

ويقول فيه:

هذا الذي تُرْجَى النجاة بحبه وبه يُحْطَ الإصر والأوزار
هذا الذي تُجَدِّي شفاعته غدا حقاً وتُخمد أن تراه النار

ويقول مخاطباً له:

وإن طال عُمرُ في نعيم وغبطة فما هو إلا من يمينك موهوب

ويقول في إعلاء مرتبته على الرسل عليهم الصلاة والسلام:

لو كنت آونة نبياً مرسلًا نُشِرتَ بمبعثك القرون الأولى
لو كنت نوحاً مُنذراً في قومه ما زادهم بدعائه تضليلاً

ويخاطبه بقوله:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فأحكم فأنت الواحد القهار

إنَّ أبا القاسم بن هانيء انسان مُصَابٌ في عقله، شاذٌّ في طبيعته، إذ يحدثنا البكريُّ عنه في (المغرب) أنه كان مُغرماً بِحُبِّ الصبيان دون النسوان، وفي ذلك يقول:

يا عاذلي لا تَأْخِني انني لم تُصِني هند ولا زينب
لكنني أصبر لى شادين فيه خصال جمّه ترغّب
لا يَرْهَبُ الطمث ولا يشتكي حملاً ولا عن ناظر يُخجّب

ويشهد لتحقيق ما سجل في شعره أن المعز لما رَحَلَ إلى مصر رجع ابن هانيء لتوصيل عياله، فَقُتِلَ في بَرَقَّةٍ في مشربه على صبي⁽¹⁾.

وكان المتهاكون من الشعراء المفتونين بالتزلف إلى بني عبيد يتنافسون في تدنيس المقدسات بأقوالهم فيقول أحد أولئك بعد تأسيس

(1) المغرب في حلى المغرب تحقيق شوقي ضيف ج 2 ص 98.

العبيدين للمهدية :

هي المهديةُ الحرم الموقى كما بتهامة البلد الحرام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى لنا بعراض قصركم التثام⁽¹⁾

إن هذا الفيض الخبيث من الأقوال، وما جرى على نسقه من تقديس العبيدين بالأفعال، كان لهما أثرٌ عظيم في تفاقم طغيان بني عبيد، وفي فتكهم بأهل السنة، وأن المرء لا يكاد يتصوّر مدى مَبْلَغِ أذاهم لأبناء القيروان، غير أن التاريخ أبقى لنا صوراً تمثل بعض مساوئهم.

وكانموج لِمَا كانوا يقتربونه أنقل ما سجله الشيخ الدباغ رحمه الله في معالم الإيمان مِمَّا نزل بأحد المؤذنين وهو الشخص الذي كان يعرف بعروس المؤذن.

يقول الدباغ :

كان عروسُ المؤذن يتولى الأذان في مسجد عباس الفقيه صاحب سحنون، وشهد عليه بعض المشاركة (المنتحلين لمذهب الشيعة) أنه لم يقل في أذانه: (حيّ على خير العمل) ففُطِعَ لسانه، وعُمِلَ بين عينيه، وطُيفَ به في القيروان، ثم قُتِلَ بالمرضاخ، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة⁽²⁾.

كلّ هذا من أجل أن أهل القيروان استعصوا على باطل العبيدين أعداء أهل السنة.

ولقد استمرّ بنو عبيد في الفتك بأهل السنة وفي ترويع الأمنين منهم في ما يزيد عن مائة عام، ولكن ردّ الفعل من أهل السنة بعد تلك المدّة كان عنيفاً، إذ يقول ابن ناجي :

لَمَّا قَدِمَ المعزُّ بن باديس القيروان بعد موت أبيه وذلك يوم الجمعة منتصف محرم عام سبعة وأربعمائة قتلت العامة الرافضة بالقيروان أقبح قتلٍ،

(1) البيان المغرب ج 1 ص 184.

(2) المعالم ج 3 ص 2.

وحرقوهم، وانتهبوا أموالهم، وهدموا ديارهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وضرجوه بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلّطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان إلى المهديّة وسائر بلادهم، فقتلوا حيثما وجدوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم بمدائن إفريقية إلّا من اختفى، ولجأت الرافضة إلى مساجد المهديّة فقتلوا فيها، وهدموا دار الإمارة.

ويقول ابن ناجي في مبلغ ما وصل إليه فتك العامة بالرافضة:

ولقد حُكي أنّ العامة جاءت متعلّقة برجل اتّهموه برأيهم، فمروا على شيخ من العامة فسألهم عن تعلّقهم به، فقالوا نسير به إلى الشيخ أبي علي ابن خلدون، فننظر ما يأمرنا به.

فقال لهم ذلكم الشيخ العامي:

لا، لا، اقتلوه الآن، فإن كان رافضياً أصبّتم، وإن كان سنياً عَجَلْتُم بרוحه إلى الجنة الآن⁽¹⁾.

تلك لقطات محدودة ممّا مرّ بالقيروان لما كانت تنشر علوم الدين. وتحافظ على السنة، وتُصارع المبطلين، ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

القيروان في شوال 1414 وفي أبريل 1994

عبد الرحمن خليف

(1) معالم الإيمان ج 3 ص 192.